لها فــي ناحيةٍ من بيت المقدس محرابــاً وضعها فيه يَرقى إليه بدرجٍ، يغدو و يروح عليها بما يصلح شأنها، و يقيم أودها.

وكان ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمـران: ٣٧]. غير الَّذي يأتي به، ولَّما كان قد تفرَّد بكفالتها من جميع الوجوه، و قــد انقطعت في محرابها تعبدالله، قانتة و ســاجدةً و راكعةً تنفيذاً لأمر ربِّها في قولــه تعالي: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] لمــا كان الأمر كذلك فقد لفتَ نظره وجود ذلك الرِّزق الَّذي لا يعرف مصدره، فســأل عن مصدره كما أخبر تعالــى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمـران: ٣٧]، أي: بغير تقدير في مقابلة جزاء عملٍ أو بغير استحقاقٍ تفضُّلاً.

طلب زكريا عليه السلام الولد:

لمــا كان زكريا عليه السلام في وقته نبياً يدعو النَّاس إلى عبادة الله وحده، ويحثُّهم على الصَّالحات من الأعمال، فإنَّه قد خشــي أفول نجم دعوته من بعده، خاصة أنَّ الَّذين سيرثون أمر الدَّعوة من بعده ليســوا على حــدٍّ كبيرٍ من الكفــاءة و الخبرة في هذا المجال الَّذي يحتاج إلى كثيرٍ من الحكمة والموعظة الحسنة.

وزكريا عليه السلام قد شـعر بالوهن يدبُّ في عظامه و المشـيب الَّذي هو علامة الكبر قد غزا رأسه، وامرأته عجوزٌ عاقرٌ لا تلد.

قـال تعالـى: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٢-٦]، فهذه عوامل لا تشـجِّع السَّـائل على سـؤال الولد، غير أنَّ زكريا عليه السلام بعـد أن رأى من حال مريم، و مـا نالها من كرامات مـن ربِّها طمع في جـود ربِّه و كرمه: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمـران: ٣٨] فقد طلب من ربِّه أن يهب له ولياً من ذرِّيته يلي أمور الدِّين من بعده، إحياءً لسـنَّة آل يعقوب في الحيـاة، الَّذين كان منهم أنبياء قائمون على رأس الدعوة إلى الله، و معشر الأنبياء لا يُوَرِّثُونَ المال، بل ما تركوه صدقةٌ، وإنَّما يورثون العلم و المعرفة.

فاستجاب الله دعاء نبيِّه ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمـران:٣٩] أي: مصدِّقـاً بكلمـة الله عيسـى ابن مريم عليه السلام،

فيحيى عليه السلام أوَّل من آمن بعيســى، و صدَّقــه و اتَّبعه، قبل ذلك فهما عاشــا في عصرٍ واحدٍ. و من صفات يحيى أيضاً أن يكون ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] ســيداً على قومه، حاصراً نفســه على فعل الطَّاعات وحبســها عن الشَّــهوات المباحة الَّتي في مقدِّمتها الزَّواج، ليس عن عجزٍ منه ولا عن نقصٍ أو عيبٍ فيه، بل لإنشغاله بما هو أهمُّ من ذلك.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] أي: نظيراً و مثيلاً في اسمه وصفاته.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريـم: ١٢-١٥]، فالله قد أمره أن يأخذ ما جاء فــي التَّوراة كتاب (موســى) من أحكامٍ و شــرائع و دعوةٍ إلى توحيد الله عزَّ و جلَّ، ويدعو إليهــا، ويعمل بها بجدٍّ و عزيمةٍ و اجتهــادٍ. و من صفاته عليه السلام أن الله قد حباه قُدرةً على الفهم و الاستيعاب لكلِّ ما جاء في التَّوراة من أحكامٍ و شرائع، و ذلك قبل أن يبلغ مَبْلَغ الرِّجال في نضج العقل وكماله.

وحباه الله أيضاً حناناً من عنده كائناً في قلبه يتحنَّن به على الناس. والحنان: الرَّحمةُ و الشَّفقةُ و العطفُ و المحبَّة، مأخوذٌ من حنين النَّاقة على ولدها.

وجعله أيضاً ذا بركةٍ للنَّاس يهديهم إلى الخير، و سبباً في تطهير أنفسهم من أدران الشِّرك و المعاصي. وكان يتَّقي بعمل الطَّاعات وأعمال القربى عذاب الله و سخطه، وما يقرِّبه من ذلك من قولٍ أو عملٍ، فيَحْيَى عليه السلام لم يعصِ الله قط.

وجعله بارّاً بوالديه، لطيفاً معهما، محسناً إليهما، لا يخالف لهما أمراً، ولا مشورةً. و لم يكن ذا جبروتٍ يتعالى على الآخرين، ويبطش بهم ظلماً وعدواناً، بل هو ذو جنابٍ ليِّنٍ وجناحٍ منخفضٍ.

وعليه الأمان من الله في المراحل الثلاث: مرحلة خروجه من بطن أمِّه، حيثُ الظُلماتُ الثَّلاثُ بعضها فوق بعضٍ. ومرحلة ما بعد الحياة وهو الموت حيثُ القبرُ و الحياة البرزخية، وما يترتَّب على ذلك من نعيمٍ مقيمٍ أو عذابٍ شديدٍ، و مرحلة البعث يوم القيامة وما يجري فيها من حسابٍ و عقابٍ و شدَّة ونَصَبٍ وأهوال. ثمَّ بعد ذلك نرى زكريا عليه السلام بعد تلقيه البشارة

بيحيى يتوجَّه إلى ربِّه يسأله عن الكيفية الَّتي يتمُّ بها ذلك، لهفاً و شوقاً على القادم.

قال اللـــه مخبراً عنه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]. فزكريا عليه السلام لم يكن مســـتبْعِداً حدوثَ مثل هذا من ربِّه، ولكنَّه ربط الأسباب بالمســـببّات، فعدَّد ما يكون في عرف البشر مانعاً في العادة من الإنجاب، كتقدُّم السِّـــن، و عقر الزَّوجة، فذكَّره الله تعالى بأنَّه يفعل ما يشاء، ولا رادَّ لما قضى، ولا معقِّب لما فعل.

فتدارك زكريا عليه السلام موقفه، فســـأل ربَّـــه علامَة بدءِ ذلك، كما جاء في قوله تعالى عنـــه ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

فانقطاعه عن الكلام ليس عن عاهةٍ أصابته أو مرضٍ ألمَّ به، بـــل هو صحيحٌ معافى، و إنَّما امتنع عن كلام النَّاس خضوعاً و تنفيذاً لأمر ربِّـــه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريـــم:١١] وكان وحيه إليهم عن طريق الإشارة. و قد مُنِع عن الكلام العادي، لا عن الذِّكر و التَّسبيح.